﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وإن كانت الآية الكريمة تتناول وتشمل غيرهم من أهل الكتاب وتشمل وتضم أيضا الذين يؤمنون بالبعث ولكنهم لم يتبعوا أنبياء .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

نعرف أن الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان واستعمره فى الأرض ، وجعله طارئاً على هذا الوجود الذى أودع الله له فيه كل ما يلزمه من مقومات حياته وإسعاده .

وأراد الحق من البشر أن يكون فيهم استطراق عبودى بحيث لا يوجد متعال على مستضعف ، ولا يوجد طاغ على مظلوم ، حتى تستقيم حركة الحياة استقامة يعطى فيها كل فرد على قدر ما هيىء له من مواهب . فإذا ما اختل ميزان الاستطراق البشرى ردهم الحق سبحانه وتعالى إلى دليل لا يمكن أن يطرأ عليه شك . والدليل هو أنكم أيها البشر تساويتم في أصل الوجود من تراب ، وتساويتم فى العودة إلى التراب ، وتتساوون فى موقفكم يوم القيامة للحساب ، فلماذا تختلفون فى بقية أموركم ؟ إن التساوى يجب أن يوجد . وهاهوذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على أن تهتدى الأمة وكان يكلف نفسه فوق ما يكلفه به ربه ، فيعاتبه ربه لأنه كان يشق على نفسه حرصا على إيمان قومه .

وقد يظن بعض الناس أن عتاب الله لنبيه لتقصير ، ونرد على هؤلاء : ليفهم الإنسان منكم هذا اللون من العتاب على وجهه الحقيقى ، فهناك فرق بين عتاب لمصلحة المعاتَب ، وعتاب للومه وتوبيخه ؛ لأن المعاتَب خالف وعصى ، ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت فى يومك العادى إن نظرت إلى ابنك فوجدته يلعب ولا يذهب إلى المدرسة ولا يستذكر دروسه ، فأنت تعاتبه وتؤنبه لأنه خالف المطلوب منه ، ولكنك إن وجدت ابنك يضع كل طاقته ويصرف ويقضى أوقات راحته فى المذاكرة ، فأنت تطلب منه ألاّ يكلف نفسه كل هذا العناء ، وتخطف منه الكتاب وتقول له : اذهب لتستريح . أنت فى هذه الحالة تلومه لمصلحته هو ، فكأن اللوم والعتاب له لا عليه . إذن قد حُلّ هذا الإشكال الذى يقولون فيه : إن الله كثيراً ما عاتب رسوله ، ونوضح أن الحق قد عاتب الرسول له لا عليه ؛ لأن الرسول وجد طريق الإيمان برسالته يسير سيرا سهلاً بين الضعفاء ، ولكنه شغل نفسه وأجهدها رجاء أن يتذوق المستكبرون المتجبرون حلاوة الإيمان ، وجاء فى ذلك قول الحق :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾

(سورة عبس)

إذن فالعتاب هنا لصالح من ؟ إنه عتاب لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحين يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ ﴾

(سورة التحريم)

إن الآية تشير إلى أمر أغضب النبى صلى الله عليه وسلم ، فامتنع عن بعض ما ترغب فيه النفس البشرية من أمور حللها الله . والعتاب هنا أيضاً لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولشدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية القوم أجمعين ، كان يحب أن يعامل الطغاة بشىء من اللين ليتألف قلوبهم . ولكن الطغاة لا يريدون أن يتساووا مع المستضعفين ، فقد مرّ الملأ من قريش ووجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خبّاب بن الأرتّ وصهيباً وبلالاً وعماراً وسلمان الفارسى وهم

من المستضعفين ، فقالوا : يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك .

وكأنهم يقولون له : إنك قد اكتفيت بهؤلاء الضعفاء وتركتنا نحن الأقوياء ولن نجلس معك إلا أن تبعد هؤلاء عنك لنجلس ، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ببديهية الإيمان إلا أن قال : ما أنا بطارد المؤمنين . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أن هناك من أمثالهم من قالوا لغيره من الأنبياء مثل قولهم . فقد قال قوم نوح عليه السلام له ما حكاه القرآن الكريم :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة هود)

وحاول بعض من أهل الكفر أن يعرضوا موقفاً وسطاً على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : إذا نحن جئنا فأقمهم من عندك لنجلس معك فإذا قمنا من عندك فاجعلهم يجلسون . ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الرأى حلا وسطاً يمكن أن يقرب بين وجهات النظر ، واستشار صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال عمر : لو فعلت حتى ننظر ما الذى يريدون . وطالب أهل الكفر من أثرياء قريش أن يكتب لهم رسول الله كتاباً بذلك ، وجيء بالدواة والأقلام ، وقبل الكتابة نزل قول الله :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة التى جيء بها ليكتبوا عليها كلاماً يفصل بين جلوس سادة قريش إلى مجلس رسول الله وجلوس الضعفاء أتباع رسول الله . والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما مال إلى ذلك من الكتابة طمعا فى إسلام هؤلاء المشركين وإسلام قومهم بإسلامهم رحمة بهم وشفقة عليهم ، ورأى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئا ولا ينقص لهم قدراً فمال إليه فأنزل الله

الآية ونهاه عما همّ به من الطرد ، لا أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أوقع ذلك وطردهم وأبعدهم ، ثم دعا بعد ذلك بالضعفاء فأتوه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يجلس مع المستضعفين ، وإن أحب ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقوم من المجلس قام ، ولكن الله أراده أن يكرم هؤلاء القوم المستضعفين بعد أن نهاه عن طردهم ، وأن يكرمهم سبحانه بما أهيجوا فيه ، وجاء أمر إلهي آخر بألا يقوم رسول الله من مجلسه مع المستضعفين حتى يقوموا هم ، فقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾

(سورة الكهف)

وعندما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم »[1] .

وبهذا القول الكريم أراد الحق سبحانه وتعالى إكرام الضعفاء والمستضعفين . ويقول سلمان الفارسى وخباب بن الأرتّ فينا نزلت ، فكان ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يقعد معنا ويدنو منا حتى تمس ركبتنا ركبته ، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) فترك القيام عنا إلى أن نقوم فكنا نعرف ذلك ونعجله القيام . أى أنهم هم الذين كانوا يقومون أولاً من مجلس رسول الله ، فقول الحق : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » هذا هو قول الله ـ سبحانه ـ أمر به رسول الله ومأمور به كذلك كل إنسان من بعد رسول الله ، وفى هذا قمة التكريم للدائمين على ذكر الله من المستضعفين ؛ لأنهم أهل محبة الإيمان وهم الذين سبقوا إليه .

---

(١) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد ورواه الطبرانى ، قال الهيثمى : ورجاله رجال الصحيح .

وهاهوذا أحد خلفاء المسلمين وقد جاءه صناديد العرب الذين أسلموا ، واستأذنوا فى الدخول إليه ، فلم يأذن لهم حتى أذن لضعفاء المسلمين . فورم أنف كل واحد من هؤلاء الصناديد وقالوا :

ـ أيأذن لهؤلاء ويتركنا نحن ؟ لقد صرنا مسلمين . فقال قائل منهم يفهم ويفقه أمر الدين : أكلكم ورم أنفه أن يؤذن لهؤلاء قبلكم ، لقد دعوا فأجابوا ، ودعيتم فتباطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا إلى دخول الجنة وأبطىء دخولكم .

إنّ هؤلاء الضعفاء يريدون بالطاعة وجه الله ، وكلمة « وجه الله » تدل على أن الإيمان قد أشْرِب فى قلوبهم ، وأنهم جاءوا إلى الإيمان فِراراً بدينهم من ظلم الظالمين وطغيان الطغاة الذين كانوا يريدونهم على الكفر والضلال . إنهم قد حلا لهم الإيمان ، وحلا لهم وجه الله ، وحلا لهم أن يؤجل لهم كل الثواب إلى الآخرة .

وحين نسمع قول الحق : « يريدون وجهه » فهذا وصف لله بأنّه ـ جل شأنه ـ له وجه ، ونطبق فى هذه الحالة ما نطبقه إذا سمعنا وصفاً لله ، إننا نأخذ الوصف فى إطار قوله الحق : (ليس كمثله شىء) .

ويطلق الوجه ويراد به الذات ، لأن الوجه هو السمة المميزة للذوات . فأنت إن قابلت أناساً قد غطوا وجوههم واستغشوا ثيابهم وستروا بها رءوسهم فلن تستطيع التمييز بينهم .

ويقال : فلان قابل وجوهَ القوم . أى التقى بالكبار فى القوم . والحق سبحانه وتعالى يقول : (كل شىء هالك إلا وجهه) ، ويقول الحق سبحانه : « ما عليك من حسابهم من شىء » وفى هذا القول حرص على كرامة المستضعفين ؛ فقد يقول قائل :

لقد استجار هؤلاء الضعفاء بالدين حتى يفروا من ظلم الظالمين وليس حباً فى الدين ، فيوضح الحق : ليس هذا عملك ، وليس لك إلا أن تأخذ ظاهر أعمالهم وأن تكل سرائرهم إلى الله .

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنعام)

وكأن الحق يوضح لرسوله : لو كان عليك من حسابهم شيء لجاز لك أن تطردهم ، ولكن أنت يا رسول الله تعلم أن كل واحد مجزىٌ بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وقد أنزل الله عليك القول الحق : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . إذن فلكل إنسان كتابه . قد سطر وسجّل فيه عمله ويجازى بمقتضى هذا ، ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣ ﴾

نحن هنا أمام « بعضين » : بعض قد استعلى أن يجتمع ببعض آخر مستضعف عند رسول أرسله الله . ويمتحن الله البعض بالفتنة ، والفتنة هى الاختبار . إن بعضاً من الناس يظن أن الفتنة أمر مذموم ، لا ، إن الفتنة لا تذم لذاتها ، وإنما تذم لما تؤول إليه . فالاختبار - إذن - لا يذم لذاته ، وإنما يذم لما يؤول إليه . وتأتى الفتنة ليُرى صدق اليقين الإيمانى ، وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ ﴾

(سورة العنكبوت)

إن الحق سبحانه يختبر مدى صدق الإنسان حين يعلن الإيمان ، إنه - سبحانه - يختبرهم بالمحن والنعم ، وقد اختبر الحق الأمم السابقة بالتكاليف والنعم والمحن ويظهر ويبرز إلى الوجود ما سبق أن علمه سبحانه أزلاً ، ويميز أهل الصدق فى الإيمان

عن الكاذبين فى الإيمان . فمن صبر على الاختبار والفتنة فقد ثبت صدقه ويقينه ، ومن لم يصبر فقد دلّ بعمله هذا على أنه كان يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ورضى ، وإن أصابه شر وفتنة انقلب على وجهه ونكص على عقبيه فخسر الدنيا والآخرة .

إذن فالفتنة مجرد اختبار . والوجود الذى نراه مبنى كله على المفارقات ، وعلى هذه المفارقات نشأت حركة الحياة . ويجب الإيمان بقدر الله فى خلقه ؛ فهذا طويل ، وذاك قصير ، هذا أبيض ، وذاك أسود ، هذا مبصر وذلك أعمى ، هذا غنى ، وذلك فقير ، هذا صحيح ، وذلك سقيم ، وذلك ليكون كل نقيض فتنة للآخر .

فالمريض - على سبيل المثال - فتنة للصحيح ، والصحيح فتنة للمريض ، ويستقبل المريض قدر الله فى نفسه ولا ينظر بحقد أو غيظ للصحيح ، ولكن له أن ينظر هل يستعلى الصحيح عليه ويستذله ، أو يقدم له المساعدة ؟ والفقير فتنة للغنى ، وهو ينظر إلى الغنى ليعرف أيحتقره ، أيجرحه ، أيستغله ؟ والغنى فتنة للفقير ، يتساءل الغنى أينظر إليه الفقير نظرة الحاسد . أم الراضى عن عطاء الله لغيره . وهكذا تكون الفتن .

إن من البشر من هو موهوب هبة ما ، وهناك من سلب الله منه هذه الهبة ، وهذا العطاء وذلك السلب كلاهما فتنة ؛ لنؤمن بأن خالق الوجود نثر المواهب على الخلق ولم يجعل من إنسان واحد مجمع مواهب ؛ حتى يحتاج كل إنسان إلى مواهب غيره ، وليقوم التعاون بين الناس ، وينشأ الارتباط الاجتماعى .

وعندما يخلق الله الإنسان بعاهة من العاهات فهو سبحانه يعوضه بموهبة ما . هكذا نرى أن العالم كله قد فتن الله بعضه ببعض ، وكذلك كانت الجماعة المؤمنة فتنة للجماعة الكافرة ، وكانت الجماعة الكافرة فتنة لرسول الله ، ورسول الله فتنة لهم فساعة يرى رسول الله الكفار وهم يجترئون عليه ويقولون :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

يعرف أن هؤلاء القوم يستكثرون عليه أن ينزل عليه هذا القرآن العظيم ، وفى

هذا القول فتنة واختبار لرسول الله ، وهو يصبر على ذلك ويمضي إلى إتمام البلاغ عن الله ولا يلتفت إلى ما يقولون ، بل يأخذ هذا دليلاً على قوة المعجزة الدالة على صدق رسالته .

والجماعة التي استكبرت وطلبت طرد المستضعفين هم فتنة للمستضعفين ، والمستضعفون فتنة لهم ، فلو أن الإيمان قد اختمر في نفوس المستكبرين لما استكبروا أن يسبقهم الضعاف إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن فكلنا يفتن بعضنا بعضًا . وكل إنسان عندما يرى موهوباً بموهبة لا توجد لديه فليعلم أنها فتنة له وعليه أن يقبلها ويرضى بها في غيره . وما عُبِدَ الله بشيء خيرا من أن يحترم خلق الله قدر الله في بعضهم بعضا ، ولذلك يختبرنا الحق جميعاً ، فإن كنت مؤمناً بالله فاحترم قدر الله في خلق الله حتى يجعل الله غيرك من الناس يحترمون قدر الله فيك .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ووجه الفتنة هنا أن قومًا طلبوا طرد المستضعفين وقالوا كما حكى الله عنهم : « أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا » ؟ كأنهم تساءلوا عن المركز الاجتماعي للمستضعفين من المؤمنين ، ويأتيهم الرد من الله : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » . فسبحانه هو العليم أزلاً بالبشر ، ولا يقترح عليه أحد ما يقرره . وقد سبق للذين كفروا أن قالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

وجاءهم الرد من الحق سبحانه وتعالى فقال :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لم يضع مفاتيح الرسالة فى أيدى المشركين أو غيرهم ، ليوزعوا هم الأمور ويقوموا بتدبير الأمر . بل هو سبحانه وتعالى الذى يوزع المواهب فى البشر رزقاً منه ليعتمد كل إنسان على الآخرين فى مواهبهم التى يعجز عنها ، ويعتمد عليها الآخرون فى موهبته التى يعجزون عنها . ومسألة النبوة هى اصطفاء إلهى يكبر ويسمو على كل مقامات الدنيا . ويدل السياق إذن على أن بعضاً من كبار العرب طلبوا أن يطرد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضاً من المستضعفين ، فأراد الله أن يطمئن المستضعفين بشىء عجل لهم به فى الدنيا وإن كان قد جعله لبقية المؤمنين فى الآخرة . لذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

لقد كان طلب الطرد لهؤلاء المستضعفين فيه إهاجة لكرامتهم ولمنزلتهم ولأنهم دون الأثرياء ووجهاء القوم ، فيطمئنهم الحق بالسلام منه فى الدنيا فيأمر رسوله : « فقل سلام عليكم » . ونفهم من السلام أنه الخلو من الآفات النفسية والآفات الجسدية، فكأن الحق سبحانه أراد أن يعوضهم بالسلام القادم من الله « فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » ونرى كلمة : « الرحمة » تتردد كثيراً فى القرآن الكريم ، فها هو ذا الحق يقول فى موقع آخر :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ما الفارق إذن بين الشفاء والرحمة ؟ الرحمة : لا يبتلى الله الإنسان بمرض ، إنها الوقاية ، أما الشفاء فهو أن يزيل الحق أى مرض أصاب الإنسان . وهذا هو البرء بعد العلاج .

إذن ففى القرآن شفاء ورحمة ، أى وقاية وعلاج . والذى يلتزم بمنهج القرآن لا تصيبه الداءات الاجتماعية والنفسية أبداً ، والذى تغفل نفسه وتشرد منه يصاب بالداء الاجتماعى والنفسى ، فإن عاد إلى منهج القرآن فهو يُشفى من أى داء . وحين يأمر سبحانه رسوله أن يقول لهؤلاء الذين أهيجوا بطلب طردهم على الرغم من إيمانهم برسالة رسول الله : « سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » فهذا يعنى أن ما حدث لهم فى هذا الأمر هو آخر ابتلاءاتهم ، وقد أخذوا بهذه الإهاجة سلاما دائما ، ومادام الله قد كتب على نفسه الرحمة فكأنه وقاهم مما يصيب به غيرهم .

وإذا سمعت قول الله : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » فالكتابة تدل على التسجيل ، ولا أحد يوجب على الله شيئاً لأنه خالق الكون ، وله فى الكون طلاقة المشيئة ، فلا أحد يكتب عليه شيئاً ليلزمه به ، ولكنه سبحانه هو الذى أوجب على نفسه الرحمة . ونأخذ كلمة « نفسه » فى إطار « ليس كمثله شىء » ، ذلك أن النفس عند البشر هى الجسم والدم والحركة والحياة ، ولكن ماذا عندما تأتى كلمة « النفس » منسوبة إلى الله ؟ المراد - إذن - هو الذات الإلهية . وإن لم تأخذ مراد الكلمة بهذا المعنى فأنت تدخل إلى مخالفات كثيرة وقانا الله وإياك شرورها .

وأؤكد هذا المعنى ليستقر فى ذهن كل مؤمن ، أن النفس بالنسبة للكائن الحى غيرها بالنسبة لله ، ولا بد أن نأخذ أى شىء منسوب إلى الله فى إطار « ليس كمثله شىء » ؛ لأن النفس بالنسبة للكائن الحى عبارة عن امتزاج الروح بالمادة ، والمادة مكونة من أبعاض . وإن لم تأخذ المراد من نفس الله على ضوء « ليس كمثله شىء » ، فأنت - والعياذ بالله - تنفى عن الحق « الأحدية » .

ونعرف أن للحق سبحانه وتعالى « وصفين » يتحدان فى المادة وفى الحروف : الأول هو « واحد » ، والآخر هو « أحد » . والسطحيون فى الفهم يظنون أن « واحدًا » معناها « أحد » . ونقول : لا ، إن « واحدًا » لها مدلول ، و« أحدًا » لها مدلول آخر . فعندما نقول : « إن الله واحد » أى لا يوجد فرد ثانٍ من نوعه فليس له مثيل ولا شبيه ولا نظير . وعندما نقول : « إن الله أحد » أى أنه لا يتكون من أبعاض يحتاج بعضها إلى البعض الآخر لتكوين الكل ؛ لأن الشىء قد يكون واحدًا وليس أحدًا . ولذلك نؤكد الفارق بين : « واحد » و« أحد » ، وحتى يعرفه كل

مؤمن جيداً فهو ـ سبحانه ـ واحد لا يوجد فرد ثان يشاركه فى وحدانيته ، فهو واحد لا شريك له ، وهو أحد جل وعلا أى ليس له أبعاض يحتاج بعضها إلى بعض . وسبق أن أوضحنا أن هناك شيئا اسمه : « كل » وشيئا آخر اسمه : « كلى » . والكل هو المكون من أجزاء ، كل جزء منها لا يؤدى الحقيقة ، وإنما لا يُؤدى الكل إلا بضميمة الأجزاء بعضها إلى بعض .

ومثال ذلك الكرسى : إنه مكون من خشب ومسامير وغراء ، فلا يقال للخشب كرسى ، ولا يقال للمسامير كرسى ، ولا يقال للغراء كرسى . ولكن يقال للشىء المصنوع من كل هذه الأشياء على هيئة محددة : إنه كرسى . إذن فـ « الكل » له أجزاء تجتمع لتكوّنه . والكلّ يمكن أن تطلق على الإنسان ، ولكن فى الجنس البشرى هناك أفراد كثيرون له .

وعلى ذلك فالحق سبحانه وتعالى ليس « كُلاًّ » أى لا أجزاء له لأنه أحد ، وليس « كلياً » لأنه لا شىء مثله ؛ فسبحانه وتعالى واحد أحد . ولهذا نفهم جميعاً أن كل شىء منسوب إلى الله ينبغى أن يكون فى إطار : (ليس كمثله شىء) .

ونحن لا نفهم مراد كلمة « النفس » بالنسبة لله كما نفهمها بالنسبة للبشر ؛ لذلك فنفس الله ليست كنفس البشر ؛ لأن الله غنى لا يحتاج إلى غيره ، وهو ـ سبحانه ـ ليس مكوناً من أجزاء ، فهو سبحانه له كل الكمال والجلال فى وحدانيته وأحديته وفى سائر صفاته وأفعاله . وحين يقول سبحانه : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » . قد يتساءل إنسان : وما مدلول الرحمة ؟

وتأتى الإجابة فى قوله الحق : « أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم » . والحق حينما أنزل منهجاً من السماء فالمنهج يضم نصوصاً للتجريم كنصوص عقاب الزانى أو اللص ، وغير ذلك ، ولا يمكن أن تأتى عقوبة إلا إذا جاءت بعد تجريم ، مثال ذلك الرشوة والنميمة وكل مخالفة للمنهج ، فلا عقاب إلا بجريمة ، ولا جريمة إلا بنص . والحق الذى خلق الخلق يعلم أن بعضا من خلقه يكون من ضعاف النفوس ، وقد تغلب إنساناً نفسُه فيرتكب ذنباً أو معصية ، والمثال على ذلك قول الحق :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

هذا هو عقاب السارق والسارقة .

وكذلك يقول الحق عن الزانى والزانية :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النور)

ما معنى إنزال مثل هذه النصوص؟ معنى إنزال هذه النصوص أن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن الإنسان قد يضعف فى بعض مطلوبات الدين فيقع فى معصية، ولا بد أن يوجد عقاب عليها . واحترم الحق بذلك تكوين الإنسان عندما منحه الاختيار ، فوضع الثواب والعقاب . وكما وضع الحق النص على الجرائم وعقوبتها فهو سبحانه وتعالى قد فتح باب التوبة لخلقه ، حتى لا يكون الذى عصى الله مرة واحدة فاقداً للأمل ، حتى لا يشقى المجتمع بهؤلاء العصاة . وشرع الحق التوبة للخلق ليرحمهم من شرور من ارتكبوا المعاصى ، وليرحم أيضاً أصحاب المعاصى ما داموا قد تابوا عنها . وقد يرحم الله بعض خلقه من المعاصى فيحفظهم منها .

وهو الحق القائل :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

سبحانه - إذن - يهدى إلى التوبة ويعفو ، وهو عظيم الرحمة بالعباد التوابين .

ومن ظواهر رحمة الله سبحانه :

﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

والسوء هو الأمـر المنهى عنه من الله . هل هناك من يعـمل السوء بجـهالة ؟ . بعضنا يفـهم الجهالة فهمـاً سطحياً على أساس أنهـا « عدم العلم » ؛ لا . إنّ الذى لا يعلم هو الأمى الخالى الذهن ، والجهالة غير الجهل ، فالجهل هو أن يعلم الإنسان حكماً ضد الواقع ، كأن يكون مؤمناً بعقيـدة تخالف الواقع . ومعالجة الجهل تقتضى أن ننزع منه هذه العقيدة التى هى ضد الواقع ثم نقنعه بالعقيدة المطابقة للواقع.

والذى يسبب المتاعب للناس هم الجهلة ؛ لأن الجاهل يعتقد فى قضية ويؤمن بها وهى تخالف الواقع . وعندما جاء العلماء عند هذا القول الحكيم : (من عمل منكم سوءاً بجهالة) . قالوا : إن الجهـالة هى السفه والطيش ، والطيش يكون بعدم تدبر نتائج الفعل . والسفه ألا يقدِّر الإنسان قيمـة ما يفوته من ثواب وما يلحقه من عقاب . وقد يكون الإنسان مؤمناً ، لكنه يرتكب السوء لأنه لم يسـتحضر الثواب والعقاب ويرتكب من السوء ما يحقق له شـهوة عاجلة دون التمعن فى نتائج ذلك مسـتقبلاً ، ولو استحضر الثواب والعقاب لما فعل ذلك السوء .

ويمكن أن نفهم أيضـاً الجهالة على أنـها ارتكاب الأمر السـيىء دون أن يبيت له الإنسان أو يخطط ، وذلك كـأن يخطط إنسان السـفر إلى باريس لتحـصيل العلم ، وعندما وصل إلى هناك جـاءت له امرأة فى غرفتـه فى الفندق وهى فى كامل فتنتـها وزينتها ، وألحت عليـه لارتكاب الفحشاء ، فلم يقدر على نفسـه . هذا فعل للسوء بجهـالة ؛ لأنه لم يخطط لذلك السوء ، وهو يندم من بعـد ذلك ، ولا يحكى عن ذلك الفعل بفخر أبداً .

هناك فارق - إذن - بين هذا الإنسـان وإنسان آخر بحث فـي عناوين بيوت اللذة فى باريس قبل أن يسـافر إليهـا ، إنه بذلك يخطط لفعل المنكر وارتكاب الفحـشاء . ويصـر على السوء ، ويتـفاخـر به ولا يندم على ما فـعل ؛ هذا الصنف من البـشر لا يغفر له الله إن استمر على هذا الحال حتى شارف الموت أو أدركه الموت ، ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَـٰٓئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ (النساء)

لأن الحق سبحانه إنما يقبل توبة من ارتكب الذنب فى حالة الحماقة والطيش ، ويقبلون على التوبة فوراً ، هؤلاء يقبل الحق توبتهم ، أما الذين لا يندمون على فعل السوء فيقول الحق عنهم :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الذين لا يُقبلون على التوبة من فور ارتكاب الذنب وينتظر الإنسان منهم مجىء الموت ليتوب قبله أى وهو فى حالة الغرغرة ـ وهى تردد الروح فى الحلق عند الموت ـ هؤلاء لا تقبل لهم توبة ، وكذلك الذين يموتون على الكفر ـ والعياذ بالله ـ وقد أعد الله لكليهما عذاباً أليماً .

والحق سبحانه قد وضح لنا قبل ذلك فقال :

﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

إذن فالتوبة يجب أن يتبعها إصلاح وصلاح ؛ ذلك أن الحسنات يذهبن السيئات ، والحق سبحانه غفور لا يعاقب على ذنب تاب عنه العبد ، ورحيم لأنه يثيب على الفعل الحسن ، بل إنه يثيب الإنسان الذى يكرر ندمه على فعل سيىء ويكتب له عن ذلك حسنة . بل إنه ـ بسعة رحمته ـ يبدل سيئاته حسنات .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وساعة تسمع قوله الحق : « وكذلك نفصّل الآيات » فاعلم أن هناك تفصيلاً

سبيل ذلك يشابه تفصيلاً سبق . والآيات السابقة قد فصّل الله فيها أموراً كثيرة ؛ فصّل لنا حجة وصحة وحدانية الله سبحانه ، وفصّل لنا صحة النبوة ، وفصّل لنا صحة القضاء والقدر . ومن بعد ذلك كله يعطينا الحق المقاييس التى تقرر الحقائق التى ينكرها أهل الباطل ؛ فيفصّل لنا فى العقائد ، ويفصّل لنا فى حركة الحياة والحركة العبادية التى نؤدى بها تكاليف الإيمان . وكما فصل لنا سبحانه صحة الوحدانية وصحة النبوة ، وصحة القضاء والقدر ، يفصل لنا الآيات التى تقرر الحقائق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ ﴾

(سورة الأنعام)

ونقرأ « سبيل » فى بعض القراءات مرفوعة ، أى أن سبيل المجرمين يظهر ويستبين ويتضح ، ونقرأ فى بعض القراءات منصوبة ، أى أنك يا محمد تستبينُ أنت السبيلَ الذى سيسلكه المجرمون .

وكلمة « سبيل » وردت فى القرآن مؤنثة مثل قوله الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الأعراف)

ووردت أيضاً فى بعض الآياتْ مذكرة :

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

ويريد الحق بذلك أن يعلمنا أن القرآن الذى نزل بلسان عربى مبين قد استقبلته قبائل من العرب . بعضها لها السيادة كقبيلة قريش لأنها تسكن مكة ، والكعبة فى مكة وكل القبائل تحج إلى الكعبة .

ويريد أن ينهى سبحانه هذه السيادة ، ولذلك جاء القرآن ببعض الألفاظ التى تنطقها القبائل الأخرى ، ومثال ذلك كلمة « سبيل » التى تؤنث فى لغة « الحجاز » ، وجاء به مرة كمذكر ؛ كما تنطقها « تميم » . ولم يأت الحق بكل ألفاظ القرآن مطابقة

لأسلوب قريش ، حتى لا تظن قريش أن سيادتها التى كانت لها فى الجاهلية قد انسحبت إلى الإسلام ، فقد جاء القرآن للجميع . (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) . أى أن الله سيعامل كل إنسان على مقتضى ما عنده من اليقين الإيمانى .

والمعاندون لهم المعاملة التى تناسبهم ، وكذلك المصرّ على الذنوب ، والمقدم على المعاصى ، وهى تختلف عن معاملة المؤمن . ولكنها فى إطار العدل الإلهى . إذن فلكلٍ المعاملة التى تناسب موقعه من الإيمان .

والمقابلون للمجرمين هم المؤمنون . فإذا استبنت سبيلَ المجرمين ، أو إذا استبان لك سبيلُ المجرمين ألا تعرف المقابل وهو سبيل المؤمنين ؟ .

وحين يذكر الحق شيئا مقابلاً بشىء فهو يأتى بحكم شيء ثم يدع الحكم الآخر لفهم السامع ، فإذا كان الحق قد بين سبيل المجرمين لعناً وطرداً ، فسبيل المؤمنين يختلف عن ذلك ، إنه الرحمة والتكريم . ومثال على ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت تقول للتلميذ الذى يواظب على دروسه ويذاكر فى وقت فراغه من المدرسة : إن سبيلك هو النجاح . ومن يسمع قولك هذا يعرف أن الذى لا يواظب على دروسه ولا يذاكر فى وقت فراغه من المدرسة تكون عاقبة أمره الرسوب والخيبة .

وهكذا يترك الحق لفطنة السامع لكلامه أن يأتى بالمقابل ويعرف أحكام هذا المقابل : فإذا كان الحق قد قال : « ولتستبين سبيل المجرمين » فهذه إشارة أيضاً لسبيل المؤمنين من رحمة وتكريم . ونعلم أن القرآن قد جاء على أبلغ الأساليب . وهى أساليب تقتضى أن تعرف معطى كل لفظ وكل حرف حتى نفهم مقتضيات المقامات والحالات التى تطابق كل مقام . ومثال على ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

لقد ترك الحق لفطنة السامع لهذه الآية أن يعرف أن الفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان ، وأن الفئة التى تقاتل فى سبيل الله هى الفئة المؤمنة ، وترك لنا الحق أن

المشهد العظيم يعرفون قدر كذبهم فى الدنيا ، فلا ملك لأحد إلا الله ، ولا معبود سواه ، فينطقون بما يشهدون : « والله ربنا ما كنا مشركين » .

ولقائل أن يقول : ولكن هناك فى موضع آخر من القرآن نجد أن الله يقول الحق مثل هؤلاء :

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) ﴾

(سورة المرسلات)

إنهم فى يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا فى الدنيا ، وهم لا ينطقون بأى قول ينفعهم ، ولا يأذن لهم الحق بأن يقدموا أعذاراً أو اعتذاراً . ونقول لمن يظن أن المكذبين لا ينطقون : إنهم بالفعل لا ينطقون قولاً يغيثهم من العذاب الذى ينتظرهم، وهم يقعون فى الدهشة البالغة والحيرة ، بل إن بعضاً من هؤلاء المكذبين بالله واليوم الآخر يكون قد صنع شيئاً استفادت به البشرية أو تطورت به حياة الناس ، فيظن أن ذلك العمل سوف ينجيه ، إن هؤلاء قد يأخذون بالفعل حظهم وثوابهم من الناس الذين عملوا من أجلهم ومن تكريم البشرية لهم ، ولكنهم يتلقون العذاب فى اليوم الآخر لأنهم أشركوا بالله . ولم يكن الحق فى بالهم لحظة أن قدموا ما قدموا من اختراعات ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ (سورة النور)

وهكذا نعلم أن أعمال الكافرين أو المشركين يجازيهم الحق سبحانه عليها بعدله فى الدنيا بالمال أو الشهرة ، ولكنها أعمال لا تفيد فى الآخرة . وأعمالهم كمثل البريق اللامع الذى يحدث نتيجة سقوط أشعة الشمس على أرض فسيحة من الصحراء ، فيظنه العطشان ماء ، وما إن يقترب منه حتى يجده غير نافع له ، كذلك أعمال الكافرين أو المشركين يجدونها لا تساوى شيئاً يوم القيامة . والمشرك من هؤلاء يعرف حقيقة شركه يوم القيامة . ولا يجد إلا الواحد الأحد القهار أمامه ، لذلك يقول كل واحد منهم: «والله ربنا ما كنا مشركين» . إن المشرك من هؤلاء ينكر شركه. وهذا الإنكار لون من الكذب.

مشخص يميزه عن الجنس الآخر إما بارتفاع ترق وإما بنزول تدن . وقمة أجناس الوجود هو الإنسان الذى كرمه الحق بالحس والحركة والتفكير . ويلى الإنسان مرتبة جنسُ الحيوان الذى له الحس والحركة دون التفكير . ويلى جنس الحيوان مرتبة النبات، وهو الذى له النمو دون الحركة والتفكير .

وعندما تُسلب من النبات غريزة النمو يصير جماداً . إذن ترتيب الأجناس من الأعلى إلى الأدنى هو كالتالى : الإنسان ثم الحيوان ، ثم النبات ثم الجماد . وكل جنس من هذه الأجناس له خصائصه ، ويأخذ الجنس الأعلى خاصية زائدة .

وأدنى الأجناس هو الجماد الذى يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان والإنسان . والحيوان يخدم الإنسان ، وهكذا نجد أن أعلى الأجناس هو الإنسان بينما أدناها هو الجماد . فكيف يأخذ أعلى الأجناس وهو الإنسان رباً له من أدنى الأجناس وهو الجماد ؟

إن تحكيم الفطرة فى ذلك الأمر ينتهى إلى حكم واضح هو سخف هذا اللون من التفكير . وفطرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل البعثة هدته إلى رفض ذلك ، وجاءت البعثة لتجعل من إلف عادة رسول الله وفطرته أمر عبادة للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل من اتبعه .

﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنعام)

إذن فمسألة عبادة المشركين للأصنام لا تنبع من هدى ولكنها خضوع إلى هوى ؛ لأن الهدى هو الطريق الموصل للغاية المعتبرة ، والهوى هو خواطر النفس التى تحقق شهوة . ولهذا نرى بعضاً من الذين يريدون إضلال البشر قد خرجوا بمذاهب ليست من الدين فى شىء ، مثل القاديانية والبهائية والبابية ، وغير ذلك من تلك المذاهب ، هؤلاء الناس يدعون التدين ، وعلى الرغم من ذلك يقدمون التنازلات فى أمور تمس الأخلاق ، ورأينا مثل ذلك فى بعض من القضايا التى نظرتها المحاكم أخيراً ، كالذى يدعى التدين ويقبِّل كل امرأة ، ولا ينظم العلاقة بين الناس بقواعد الدين ، ولكن يطلق الغرائز حسب الهوى . وذهب إليه أناس لهم حظ كبير ومرتبة من التعليم ،

وقد أوهموا أنفسهم بخديعة كبرى ، وظنوا أنهم أخذوا بالتدين ، بينما هم يأخذون حظ الهوى المناقض للدين .

﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنعام)

أى أنك يا رسول الله عليك بإبلاغ هؤلاء المشركين أنك لا تتبع أهواءهم التى تقود إلى الضلالة ؛ لأن من يتبع مثل تلك الأهواء ينحرف عن الحق ، ولا يكون من المهتدين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

هنا يبلغ الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن تركه لعبادة الأصنام وإن كان أمراً قد اهتدى إليه صلى الله عليه وسلم بفطرته السليمة ، فإنه قد صار الآن من بعد البعثة عبادة ؛ لأن اصطفاء الحق له جعله يتبين هدى الله بالشريعة الواضحة فى « افعل » ولا « تفعل » ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة للناس ، ويؤدى كل فعل حسب ما شرع الله ، ويتبعه المؤمنون برسالته .

ومثال على ذلك من حياتنا المعاصرة : لقد نزل القرآن بتحريم الخمر ، والمؤمنون لا يشربون الخمر لأن الحق نهى عن ارتكاب هذا الفعل . ونجد الأطباء الآن فى كل بلدان العالم يحرمون شرب الخمر لأنها تعتدى على كل أجهزة الإنسان : الكبد ، والمخ ، والجهاز العصبى ، والجهاز الهضمى . ونجد « أفلاماً » تظهر أثر كأس الخمر على صحة الإنسان . وقد يرى إنسان غير مؤمن مثل هذا « الفيلم » فيمتنع عن الخمر